خرافة الإشعاع .. أيضاً

بقلم: حمد أبو سعد

تحدثت في عدد مضى من الآداب (١) عن قضية الاشعاع الفكري في لبنان كيف نشأت ، وماذا كان الباعث على نشوئها . وبينت من ثم كيف استحال هذا الاشعاع الى خرافة جنت على الفكر في بلادنا ، وحالت دون تطوره وازدهاره التطور والازدهار اللذين نلحظهما اليوم في آداب البلاد العربية الأخرى – واكثرها كان متخلفا عنا نهضة ورقيا وثقافة – لاننا نحن اللبنانيين اكتفينا من النهضة بالتغني ، وساورنا الاعجاب بانفسنا فنمنا على الاعجاد ، ظناً منا بأن تقدمنا في ما مضى كان لتفوق غريزي طبيعي فينا ، لا لأن النهضة بدأت عندنا قبل أي بلد آخر . تحدثت عن ذلك كله ، وشفعت كلامي بنماذج واقوال تشهد بصحة ما أروي . غير ان بعض الذين تسيطر عليهم الضلالة ، ويتعمهم غرورهم ان يقرأوا بحقائق تخفض من منازلهم ، حملوا كلامي على محمل كيد « الصغار » « للكبار » وفسروه – بتحريض من المتهمين – تفسيراً يجعله موجهاً من فريق ضد فريق آخر . فالى هؤلاء الذين يجمجمون بآرائهم وتعليقاتهم جمجمة ولا يجسرون على الاعلان عنها جهاراً ، اسوق هذه المقاطع من مقال وقعت عليه اخيراً في جريدة المكشوف العدد ٣٤٩ السنة ١٩٤٤ تحت عنوان « أنكون الغريب الفقير في مجموعة الدول العربية ؟ » يقول فيه الاستاذ فؤاد حداد – أحد الذين لا يرقى الى لبنانيتهم أدنى شك – وهو بصدد الحديث عن « النفسية اللبنانية » ما نصه بالحرف الواحد :

« للبناني الفرد ذكاء يندر مثيله في سائر الامم . وافرط ما اعجب الناس بهذا الذكاء وافرط ما ردد على مسامعنا من عبارات الاكبار والمديح ساورنا الاعجاب بانفسنا فانزلقنا نحو الغرور ، غرور قعد بنا عن كل عمل بنائي ، فاذا « التفشيط » خلة طبيعية في خلقنا .. ولأن افرادا لبنانيين قاموا بالنهضة اصبحنا وكأن لنا حقوقا تجيز لنا ان لا نعمل وان نعيش على التواكل مثل اولاد الاغنياء الذين ينشأون على « الدلع » .. ونتج عن ذلك ان داخلنا اعتقاد بان كل عمل نأتي به مهما يكن تافها ضئيلا يعجز عنه سوانا ، وان ذكاءنا يكيف الامور على هوانا . وصار أطرب الاصوات عندنا ذلك الذي يردد على مسامعنا اننا « نوابغ وعباقرة » ..

ظل هذا القول يتكرر على مسامع لبنان ويدغدغ منه الغرور – وموطن الضعف في النفسية اللبنانية الغرور حتى تسرب الى اعماق نفسه وصار ايمانا ينادي به هو . فبينما كانت الاقوال المعسولة تنشر في مسامع لبنان فتخلق في مخيلته صوراً باهرة تصرفه الى الاحلام الذهبية ، كانت الشعوب من حولنا تجد وتعمل فتوطد كيانها وتبني نهضتها فاذا كل دولة تقدم براهين حسية ، ومجهودات عملية ، وتحقيقات انشائية تؤهلها للتصدر ، أما لبنان فلم يقدم سوى ماضي بنيه و « بهورته » الدائمة كأنه سكران يصيح : « انا رب الكون ! » فيحيط به الجميع يهدئون روعه قائلين : « صدقت . الحق معك انت رب الكون وحدك ...» الى ان يقع مغشياً عليه من السكر .

ماذا فعلنا نحن في لبنان ؟ لم ننشىء ادباً بعد مهما تشدقنا باننا خالقنا القصة واوجدنا المسرح وطورنا الشعر . اين المكتبة اللبنانية ؟ اين دور النشر ؟ اين مجهوداتنا العلمية ؟ أقول هذا وامامي مجلدات لا تحصى ولا تعد من اخراج الدور المصرية ، انها بناء وان آنكرناهندسته وفنه . وامامي مجلدات من اخراج المطابع السورية ، مؤلفات ضخمة متقنة لنخبة من الاعلام السوريين في الطب والحقوق والهندسة والاقتصاد . وفي ذهني صور عن الجامعات المصرية والسورية والعراقية وعن نسق الحياة الاجتماعية في كل منها وقد بدأ يتبلور على شكل نهائي . أجل ماذا نقدم نحن كحجة حسية عن مؤهلاتنا للزعامة ؟ ماذا عملنا ؟ وما دمنا لم نعمل شيئاً بعد فكيف نسير مطمئنين ؟ هذا ما أتساءله بحذر واخشى ان نستفيق على الحقيقة متأخرين!»

أجل ، قد استفقنا يا أخي فؤاد ولكن متأخرين ، كما تفضلت . ولما اردنا ان نقول اليوم كلاماً يشبه كلامك الذي قلته أنت بالأمس – وحرصت أنا على نشره هنا بكل ما فيه – ثارت ثورة المغترين ، وقامت قيامة الحالمين ؛ فسلام عليك هات يمينك لنخلص لبنان من داء الغرور ، ونهبط به من جو الأحلام الى ارض الانام ، فنفتح عينيه على واقعه الذي يعيش فيه ، ونطوف به قليلا في البلاد العربية نضع اصبعه على نهضتها وتقدمها ثم نعرج على الغرب ، غرب القرن العشرين لا غرب القرن الثامن عشر والتاسع عشر فنطلع على نهضته الحديثة ، ونعود فنكافح من اجل ادب جديد يتصل بالحياة ويخفق بقلوب الناس ، ادب يمد جذوره في الواقع ويستمد مادته من العيش اليومي ، من العمل ، من آلام الناس وافراحهم .. الناس «الحقيقيين» الذين لهم وجود حقيقي لا الاشباح التي تشرد في «المطلق» وتسبح في عوالم «مجردة» .

لنكافح من اجل هذا الادب وننقذ بلادنا من التائهين العابثين الذين يعيشون على هامش المجتمع او يطلون عليه « من النافذة» فيصورون لك الشاعر بصورة رجل مجنون نسيج وحده Un Original وينادون بان الادب غايته كل غايته اللذة والمتعة والايناس .. اما البحث في امور مشتقة من قضايا الناس ومشاكلهم التي يرتبط بها مصيرهم وتتوقف عليها سعادتهم فانه «ابتذال» يؤدي الى «انحطاط» مستوى الشاعر . و«سياسة» – ما دخلت السياسة شيئا الا افسدته – يجب ان « تترفع » عنها الاقلام الملهمة وتحلق مرفرفة في جو من السحر والضباب وفيض من ضياء القمر . ولماذا ؟ لاننا نحن في لبنان نرى او

(١) راجع العدد السابع ، تموز (يوليو) ١٩٥٥

ان واحداً من عباقرة لبنان يرى « ان شريطة تشد في ذوق على ضفائر طفلة ، ان اطلالة حبية من وراء ستار على شباك ، ان رفع خصر بضعة اصابع ، لهي بدورهـــا في نظري مشتغلة للبنان وللشرق اكثر من الف سياسي »

هذه لعمري آراء وافكار كان يحتفل بها في العصر الماضي وهي تصلح ان يرسلها الشاب الى «خطيبته» في ظرف مضمخ بالعطر .. اما اليوم ، في القرن العشرين ، فعلماء الجمال اصبحوا ينظرون الى الادب نظرتهم الى انسان هو اكثر الناس سلامة وحساً اجتماعيا واكثرهم خلوّاً مـن الانحراف عن الجوهر . يقول بيكاسو الفنان العـالمي الكبير : «الفنان كائن ذو وعي سياسي ، يرقب دوما وقائع العالم الدراماتية المثيرة ويدرك مغزاها ويصورها للناس فكيف يجوز للفنانين عدم الاهتمام بشؤون الآخرين ؟ واي تراخ او كسل اناني يمكن ان يدفع بالواحد ان يعزل نفسه عن الحياة التي يسعى الآخرون الى تحسينها والتسامي بها . ان موضوع الرسم ليس تزيين البيوت فحسب فالرسم سلاح من اسلحة الحرب يستخدم للدفاع ضد العدو وللاغارة عليه» .

وهذا ناقد فرنسي مثل البيريس يعلن : « أنه منـذ ان قام رد فعل القرن العشرين الذي أصبح فيه الفن حاجة أوليـة وكف الادب عن أن يكون موضوع تسلية أو سحر ليشكل ضرورة وليتحمل قلق العصر ومصيره ، انقطع الحديث عـــن الجمـــال .. »

هذا هو الاتجاه الذي يتجه اليه المدركون في العالم اليوم . وهذا هو الموضوع الذي يشغل جماهير المثقفين في سائر أنحـاء الدنيا ، ويؤلف هماً من همومهم الكثيرة ، فالى متى نظل نحن في لبنان خارج الصراع فلا نشارك فيه ، ونعيش متخلفين عن مسايرة اتجاه الحركات الصاعدة اقتناعاً منا بأننا « بلد الاشعاع » واعتماداً على ذكائنا الذي نحسب أنه يندر مثيله في سائر الامم ؟

لقد كتبت في مقالي السابق ان لبنان اليوم خلف البلاد العربية ثقافة وانتاجاً وأن سعيد عقل الذي يزعم نفسه على شعرائنا لايداني شاعرة أو شاعراً من شعراء العراق المبدعين . لقد كتبت ذلك وأنا أعني ما كتبت [1] فنحـن منذ قصـــه

---

١ اما ناقد العدد الماضي الذي جعله مقالنا السابق يرى في البحث هجوماً على اصحاب الرمزية كاسحاً وتحاملا واضحاً ونقمة شاذة لا تتسم بالاعتدال وتخرج عن «الموضوعية» فكلام اقل ما يقـــال فيه انه غير « موضوعي » . وما الموضوعية؟ يخيل الي ان من اهم صفاتها « التقيد بالموضوع والمراعاة لشروطه ، وحياد الكاتب في تنـــاوله» وموضوعنا في العدد السابق كان «خرافة الاشعاع» ولم نأت على سيرة الرمزية — كما فهم الناقد خطأ او غير خطأ لا اعلم — وهو موضوع يمت الى فن « المقال » ومن شروط المقال — كما هو مفهوم لدى الجميع — ان يقسمه الكاتب اقساماً فيبدأ عادة بمدخل او مقدمة الى الموضوع ثم يخوض في الموضوع فيركز كلامه على ما يهمه ويؤيده بالبراهـــين والامثلة ثم يخرج الى الخاتمة التي وصل اليها .

فهل عددت انا في مقالي — كما هو واضح — شيئـــاً من ذلك؟ لقد بدأته بمقدمة بينت فيها قضية الاشعاع كيف نشأت وماذا كان الباعث على نشوئها ، ثم صورت كيف استحال هذا الاشعاع الى « خرافة » حالت دون تطور ادبنا وازدهاره وأيدت كلامي بالبراهين والامثلة الكثيرة وخرجت بالنتيجة الآتية : وجوب اعادة النظر بادب ادبائنـــا وشعر شعرائنا انقاذاً لسمعة لبنان . هذه واحدة .

اما اعترافي لهم بالنبوغ واقراري لهم بالاستاذية فتلك صفة من ابرز صفات « الموضوعية » في المقـــال واقوى الادلة على « الحيـــاد » وقلة « التحامل » .

ثم ماذا يفهم الاستاذ القط بالتتلمذ والاستاذية ؟ أيفهمها على ضوء المبدأ القائل : من علمني حرفاً صرت له عبدا ؟

بقي « العنف » في الاسلوب الذي استتر وراءه الناقد ، وأراد ان يوقعها بيني وبين « الآداب » ، فالجواب عليه « ان البلاغة عند العرب هي موافقـة الكلام لمقتضى الحال » فليراجع الناقد ذلك في موضعه من كتاب البلاغة .

وبعد فمن يلق نظرة على عبارة الدكتور الاخيرة في نقـده للمقال ، العبارة التي يطلب فيها « تحليل بعض نمـــاذج الشعر العربي على ضوء الادب الاوروبي» ويرجع الى مقالنا الذي نقول فيه ان سعيد عقل لا يداني شاعرة او شاعرا من شعراء « العراق » المبدعين ، أقول من يستبطن الامر يجد تفسيرا لهذا الكلام من شاعر « مصري » ولا ازيد ، فسلام على الدكتور القط وتحية لشعراء مصر الاحرار .

الى مدرسي الادب العربي ومدراء المدارس

صدرت حديثاً :

الطبعة الجديدة من كتاب

« المختارات السائرة »

مختارات شعرية ونثرية منطبقة عـــلى برنامج البكالوريا اللبنانية الجديدة .

تأليف الاستاذ انيس المقدسي

الثمن خمس ليرات ونصف **دار العلم للملايين**

« الرغيف » لتوفيق يوسف عوّاد لم يطلع عندنا — اذا استثنينا « الحي اللاتيني » — قصة واحدة طويلة أو قصيرة تقف على قدميها أمام القصاصين المصريين الكبار من أمثال نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي ويوسف ادريس ويوسف الشاروني وغيرهم وغيرهم . وفي الشعر على رغم الفصل الطويل الذي كتبه سعيد عقل في مجلة « الصياد » عارضاً فيه مواكب العباقرة في لبنان — نحن لا نزال نجتر ما قلناه منذ عشرين عاماً وهو في معظمه إما امتداد للشعر العربي الكلاسيكي ، أو نقل عن الشعر الغربي الذي انقطعت أخباره منذ زمن طويل ودفنوه في احتفال غير مهيب كالشعر الرومنطيقي والرمزي والبرناسي . فالشعر في العالم اليوم يتميز بارتباط شاعره بالحياة الاجتماعية وبثورته على « الشكلية » التي تعلن أن الشكل ينبغي ان يكون « مستقلاً » عن الموضوع وعما يحتويه من تأثر بالبيئة أو التفاعل مع الجماعة . كما يتميز بتخلصه لا من مقاييس البلاغة وحدها فحسب بل من العبارة الشعرية ايضاً . وهو يحاول خلع كل ما يتسم بالتكلف ويختار أسلوباً أقرب الى الحياة في الفاظه ونغمته ، ويتجه نحو شكل جديد لا يرمي الشعراء به الى طرافة الشكل وحده — كما يفعل سعيد عقل وامثاله — فهذه تجعل عمر الشعر قصيراً — كما يقول الاستاذ احسان عباس — « وانما هم يلبون دعوة الحياة المتجددة وحركتها ومداخلها النفسية الدقيقة ومشكلاتها الاجتماعية ، ويغيرون النغمات القديمة ليصبح الشعر كفؤاً بالتعبير عن متطلبات الحياة الجديدة [1] . وبالخلاصة ان الشعر الظرفي La poèsie de circonstance — كما يقول ايلوار — هو الشعر وأصدق معبر عن كل ما ذكرنا هو شعر الشباب العراقيين والمصريين والسودان وواحد أو اثنين من السوريين . أما لبنان فواحسرتا على لبنان ! فتفشط وعنجهية وتغن بالاشعاع ، وأرجو ان لا يضطرني أحد الى نشر الغسيل أكثر من ذلك ، فان لي في هذه الأجيال الصاعدة لأملاً يقف بوجه هذا اليأس ويحول بيني وبين أن أقطع الرجاء .

ما كنت يوماً متذمراً ولا أنا فريسة للكراهية . انا من أشد المؤمنين بالحب . وإن حبي لبلادي لهو الذي دفعني الى الكتابة وحثني على اطلاق هذه الصرخة بوجه الشاردين العابثين المغترين ليكفّوا عن تضليلهم ويرجعوا عن غوايتهم . ولأكشف للمقبلين من الاجيال فراغ من تقدمهم وافلاسهم .

لا اذكر الآن الاديب الذي قال : «ان الاديب يجب ان يتصف بالكراهية الفعالة لكل ما يستعبد الانسان من قيود خارجية او باطنية ، وبالنقمة على كل ما يحول دون تطوره الحر الكامل المستمر ، والاشمئزاز من جميع الكسالى والطفيليين . . وانه يجب ان يبذل كل جهد ويستخدم جميع الوسائل ليعلم الناس السمو والبطولة ويبعث فيهم الثقة بقدرتهم على التقدم ويساعدهم على ادراك معنى الحياة واهمية العمل ولذة السعي»

هذه هي خطتنا في نقد من سننقد . على ضوئها سوف نتناول نتاج ادبائنا وشعر شعرائنا ، وسيراً مع هذه الخطة سندرس الموضوعات التاليه :

١ — الحب الميتافيزيكي والغزل الادفيكي
٢ — الغزل من عمر بن ابي ربيعه الى سعيد عقل
٣ — الفصحى والعامية والحرف العربي والحرف اللاتيني
٤ — الشعوبية بين الامس واليوم

احمد ابو سعد

[1] راجع كتاب « عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي » للدكتور احسان عباس ، منشورات دار « بيروت »، ومقالة الاستاذ محمود أمين العالم في « الآداب » عن الشعر المصري . وكتاب « علم الجمال » للناقد الفرنسي « هنري لوفافر » .

الى مدرسي الانشاء في العالم العربي

قبل ان تقرروا كتبكم للعام القادم

راجعوا سلسلة

كيف أكتب

وتقع في اربعة اجزاء للصفوف الابتدائية وهي حافلة بالرسوم الملونة والقصص الخاصة بالمطالعة والروايات التمثيلية .

دار العلم للملايين